رابعًا
نصوص مختارة

١ – أغلال وأصفاد فى تراثنا العربى

« ... وعقيدتى أن فى تراثنا العربى إلى جانب عوامل القوة ، عوامل أخرى تعمل فينا كأبشع ما يستطيع فعله ، كلُّ ما فى الدنيا من أغلال وأصفاد ، وأنه لمن العبث أن يرجو العرب المعاصرون لأنفسهم نهوضًا أو ما يشبه النهوض ، قبل أن يفكّوا عن عقولهم تلك القيود ، لتنطلق نشيطة حرّة نحو ما هى ساعية إلى بلوغه ؛ إنه لابناء إلا بعد أن نُزيل الأنقاض ونمهد الأرض ونحفر الأساس القوى المكين .

وسأكتفى من هذه العوامل المعّوقة بثلاثة :

الأول : أن يكون صاحب السطان السياسى هو فى الوقت نفسه ، وبسبب سلطانه السياسى ، صاحب الرأى ، لا أن يكون صاحب رأى (بغير أداة التعريف) ، بحيث لا يمنع رأيه هذا ، أن يكون لغيره من الناس آراؤهم .

الثانى : أن يكون للسلف كل هذا الضغط الفكرى علينا ، فنميل إلى الدوران فيما قالوه وما أعادوه ألف ألف مرة – لا أقول ، إنهم أعادوه بصور مختلفة ، بل أعادوه بصورة واحدة ، تتكرر فى مؤلفات كثيرة ، فكلما مات مؤلف ، لبس ثوبه مؤلِّف آخر ، وأطلق على مؤلَّفه

اسما جديدًا ، فظنَّ أن الطعام الواحد ، يصبح أطعمة كثيرة ، إذا تعددتْ له الأسماء .

الثالث : الإيمان بقدرة الإنسان (لا كل إنسان ، بل المقّربون منهم) على تعطيل قوانين الطبيعة عن العمل ، كلما شاءوا ، على غرار ما يستطيعه القادرون النافذون – على صعيد الدولة – أن يعطلوا قوانين الدولة فى أى وقت أرادت لهم أهواؤهم أن يعطلوها »

« تجديد الفكر العربى ٢٦ – ٢٧ »

٢ – عصر التحوّل

عصر التحوّل هو عصرنا فالسفينة تتحرك به بين شطّين اثنين ، ولو غفلنا عن هذه الحقيقة الأولية ، زاغتْ أبصارنا إلى ماضٍ تركناه ، أو شَطَحَ بنا الخيال إلى مستقبل مأمول ، لا نملك بَعْدُ وسائله .

فإذا كانت الأولى ، الْتَوَتْ أعناقُنا ، وتحوّلنا إلى أصنام من الملح ، كالذى أُلِمَّ بقوم « لوط » ؛ إذ لَوَوْا أعناقهم ، لينظروا إلى الوراء أسفًا وحَسْرة ؛ وإن كانت الثانية أصابنا كُساح ، كالذى يصيب الطفل ، حين يرغمه أبواه على المشى ، قبل أن تستقيم ساقاه وتَقْوَيَا .

يصوّر « كافكا » صورة هاديةً ، حين تصوّر إنسانًا أخذه النُّعاس واستيقظ ليجد نفسه خُنْفُسًا ضخمًا . لقد تحّول فكان لهذا التحّول مشكلاته العصيّة العسيرة ، فكيف يسيرُ وعلى أى نهج يسلك هذا الإنسان الخنفس ، بحيث يرضى عن سيره وسلوكه ؟ أيجعل معياره حياة الخنفس أم حياة الإنسان ؟ إنه لو فعل هذا أو ذاك تجاهل حالته الراهنة ، فلا هو بالإنسان حتى يصطنع قواعد الأناسىّ ولا هو

بالخنفس ، حتى يحيا كما تحيا الخنافس ، إنه إنسان خنفس ، وإذن فلابد من نظرة جديدة ومعايير جديدة ، وإلا أخذته الحيرة واستبدت به الفوضى ، وضلّله اللَّبس والغموض ، واضطرب بين مجموعتين من المثل ، فلا يدرى بأيهما يأخذ ، والصواب هو ألا يأخذ بأىٍّ منهما ، وأن يخلق مجموعة من المثل ثالثة تصلح لهذا الكائن الجديد .

لا جُناح على الإنسان أن تستقر حياته على قواعد ثابتة ، إذا مارَسَا فُلْكَهُ . على شط الوصول ، أما وهو ما يزال يسبح فى اللجّة يلاطم الموج ليصل ، أعنى أما وهو فى مرحلة التحول ، فصاحبُ القواعد الجامدة الثابتة هو المحكوم عليه بالتهلكة والضياع .

فالقاعدة الأولى فى مرحلة التحول ، هى ألا تكون هناك قاعدة ، تسد علينا طريق المغامرة والمبادرة والخلق .

إنّ الجديد لم يتحدد بَعْد ، حتى يجوز لنا أن نُقَعِّدَ له القواعد ونقنن له القوانين ، الجديد هو فى طريق الصنع ، نحن الذين نصنعه فى مرحلة التحول هذه ، نبتكر لكل موقف ما يلائمه ، ونلاقى كل مشكلة بما يناسبها ، إننا إذ نشكل المواقفَ تَشَكَّل فى صورتنا الجديدة ، فلابد — إذن — أن يكون من صفات هذه المرحلة ، تغيُّرٌ كل عام ، كل شهر ، كل يوم . ليس العيب هو فى هذه المراجعة الدائبة لنظم الأسرة ، والحكومة والتعليم ، والاقتصاد ، وإنما العيب هو فى الوقوف عندما كان قائمًا ، كأنما هو الأزل الذى لا يبيد ! إن عصر التحول هو عصرنا ولا تحوّل لنا إذا أقلعنا بالسفائن من شط الكلام أو من معرفة قوامها الكلام إلى شط آخر ، أو معرفة قوامها الآلة التى تصنع ،

وهذه الآلة ليست كتلة من الحديد إنما هى علم مُجسّه ، إنها هى الثقافة وهى الحضارة ..

« تجديد الفكر العربى ٢٢٤ - ٢٤١ »

٣ - الفكر والحوار

إن الفكر يتطور بالحوار ، بينما لانجد فى ساحة الفكر العربى ، لامشاركة ولاحوار ، وإنه ليس بالشىء المستبعد فى حياتنا الفكرية أن تنبت فكرة هناك فلا نسمع بها هنا فضلاً عن أن تجد من يناقشها ليحييها ، واقتلُ ما يقتلُ التفكير مقابلته بالصمت ، لأنّ المعارضة والموافقة كلتيهما زادٌ للنماء ، إنّ فى وطننا العربى أفكارًا مبعثرة ، ولأمرٍ يحتاج إلى تحليل وتوضيح ، لم يفلح فى صهرها ، كلّ ما نقيمه من مؤتمرات ، ومهرجانات ولمحات نقدية نتقاذفها حينا بعد حين ، وإننى لأكاد أعجز عن الجواب إذا سألنى سائل : ما أهم القضايا الفكرية التى تشغل رجال الثقافة العربية ؟ فلكلٍّ منهم قضية ، ثم ، لالقاء !!

سل : ماهو التيار الفلسفىّ الأغلب بين المثقفين العرب ؟ ولن تجد الجواب ، فكل صوت مسموع فى دنيا الفلسفة فى أوروبا وأمريكا له بيننا صداه ، ففينا المثاليون والتجريبيون والواقعيون ، والوجوديون ، والبراجماتيون ، والماديون الجدليون ، والشخصانيون ، فإذا سألنى سائل آخر : ما هو الاتجاه الأغلب بين المثقفين العرب فى ميدان النقد الأدبى ؟ أقول : لا أجد الجواب ، فكل مذهب نقدىّ يتردد فى أوروبا وأمريكا ، له عندنا مناصرون ، فهناك من يقيمون النقد على أساس بحثهم فى القطعة الأدبية ، عن نفسية الكاتب ، ومن يقيمونه على أساس

بحثهم ، عن الظروف الاجتماعية ، كما انعكست فى الثمرة الأدبية المنقودة ، ومن يقيمونه على أساس بحثهم عن الهدف المذهبى = (الأيديولوجيا) ، هل وجد تعبيرًا عنه أم لم يجد ؟ وهكذا وهكذا . وهنالك من يأخذون عن ت . س . إليون ، ومن يأخذون عن أ .أ ريتشاردز ، ومن يأخذون عن سارتر ، ومن يأخذون عمّن (لست أدرى) ممّن فى روسيا أو غيرها ، عندنا وعندنا من البضاعة ألف صنف وصنف !! أتقول إنها فاعلية وحيوية ، هذا التوثب لالتقاط الشاردة والواردة ؟ قل ماشئت ، « لكنى أقول إنها كالميازيب ، تصب ماءها ، دون أن تجد المجرى الأصيل الذى يوحدّ الماء ، فى تيار ؛ فليس فى عقولنا الإطار القومى المعدّ لتشكيل المادة الوافدة ، فى شكل يحمل الطابع العربى ، برغم اختلاف الأفراد ، وقُلْ هذا نفسه ، فى كل شىء ، قُلْه فى الفنون على اختلافها – كما تقوله عن مناخنا الفكرى ، سواء بسواء » .

وإذن ما الحل ؟ وما العلاج ؟ وما العمل ؟ (وأقول .. وأوّل ما أؤكده ، وأحرص عليه أشد الحرص هو ألا يقوم فينا من يُملى علينا ما نصنعه وما لا نصنعه ، وإنما نريد من يهيئ لنا المناخ الملائم ، الذى يدعونا من تلقاء نفسه ، إلى ضربٍ من التجمع العقلى ، حتى وإن لم يجمعنا مكان واحد ، نريد للفكرة تصدر فى هذا الطرف ، فتجد الآذان لسمعها فى ذلك الطرف ، القطرات الفكرية موجودة ، تظهر آنًا بعد آن ، ونريد من يجعل منها نهرًا فياضًا ، اللّمعات الفُرادى متناثرة ، ونريد من يصنع منها سراجًا وهّاجًا »

« نافذة على فلسفة العصر ٢١٨ – ٢٢١ »

٤ – الشعر والأخلاق

« ... يقول لنا الشاعر بشعره : هذه هى الحياة ، وهذا هو نبضها كما أحسه ، وإن لم يستطع أن يحسه معى سائر البشر أجمعين ، فماذا يقول الأخلاقى ؟ إنه يقدم لنا المبادئ المطلقة الثابتة ليقول لنا : هذا هو ما ينبغى أن تكون عليه الحياة البشرية ، والفرق بين ما هو كائن فى تصور الشاعر ، وما ينبغى أن يكون ، هو الفرق بين الشعر والأخلاق .

الأخلاق تأمر ، والشعر يفسّر ، بماذا يأمرنا شعر المتنبى أو شعر أبى العلاء ، مع أنهما الشاعران اللذان وصفهما القدماء بأنهما حكيمان ، وبين الحكمة ومبادئ الأخلاق وشيجة قربى ؛ بماذا يأمرنا شعرهما ؟ إنه لا يأمرنا بشىء ، ولكنه يزيدنا فهما لطبائع البشر . الشعر كاشفٌ عما استتر من لواعج النفس وخلجاتها ، لا يفرّق فى ذلك بين خير وشر ، إنه يكشف الغطاء عما لاتراه العين العابرة من طبائع الناس ، وإنه لمن العجب ، أن هذا الإنسان فى وسعه أن يعلو إلى اسمى مدار الفضيلة ، كما فى وسعه كذلك ، أن يسفل إلى أحط مهاوى الرذيلة ، ومهمة الشعر أن يغوص إلى الأعماق الخبيئة ، ليرى الرواسب على القاع فيخرجها من حالة اللاشعور المبهم الغامض ، إلى حالة التصوير الواضح ، ليرى الإنسان نفسه كما هى .

إن الشاعر إذ يصوّر لك فردًا معينا ، أو حالة شعورية خاصة ، من حب أو كراهية أو غضب أو رضىً ، فهو يقدمّ لك العام فى الخاص ، وهذا هو موضع الإعجاز فى جيّد الشعر ، إذ هو يقدم

لك حالة مفردة ، ولكنها فى الوقت نفسه تصلح أن تكون نموذجًا تفسّر به سائر الحالات .

الأخلاق تنهانا عن الرذيلة ، وتحضّنا على الفضيلة .. أما الشعر فيفتح أعيننا على منابع الرذيلة والفضيلة معًا ، فإذا كان عملنا بهذه الينابيع ، يقوّم سلوكنا من تلقاء نفسه ، بلا وعظٍ صريح/ كان ذلك هو الجانب الأخلاقى من الشعر .

الشعر محايد ، يصور لك العبقرىّ والأبله ، على حدّ سواء ، فهو كالشمس تشرق على الكائنات بغير تمييز وإنه لخطأ شائع بيننا ، أن يقال عن الشعر إنه تعبير عن نفس صاحبه ، لكنّ هذا التعريف الضيق ، قد ينطبق على قلّةٍ قليلة من الشعر الغنائى ، أما الشعر من الضروب الأخرى ، فلا شأن له بنفس صاحبه ، لأن نفس الشاعر من حيث هو فرد واحد ، ليس لها كل هذه الخطورة فى حياة الناس ؛ وأقرب إلى الصواب أن نقول : إن الشاعر بعبقرية الفن فى فطرته ، يعطينا من نفسه الحالة الخاصة ؛ فإذا هى تصوير للإنسان من حيث هو نوع بشرىّ متجانس الأفراد .

وإذا كان الشاعر يعبّر عن نفسه هو ، فكيف أمكن للشاعر المسرحىّ مثلا ، أن يسوق فى مسرحية واحدة ، حشدًا من الأنفس المتباينة ، فأىّ هذه الأنفس تكون نفس الشاعر ؟ فى أى الأشخاص الذين صوّرهم شكسبير ، يعبّر الشاعر عن ذاته ؟ أهو « ترويلس » العاطفى الساذج فى مسرحية « ترويلس وكرسيدا » ، أم هو هكتور الفارس النبيل ؟

أهو « يوليسيز » ذو الفكر الناصع ، أم هو « كاسندرا » ، التى ترى العالم قاسيا لا رحمة فيه ؟

إن الشاعر يقدم هؤلاء ، وغير هؤلاء ، لا يقول عن أحد منهم : إنه أخطأ أو أصاب ، وذلك لأنه لم يكتب ليدعو إلى شيء بعينه ، وإنما كتب ليكون شاعرًا .

هُنَّ أخوات ثلاث : العلوم والفنون ودنيا السلوك ، العلوم قانونها الحق ، والفنون قانونها الجمال ، ودنيا السلوك قانونها الخير ، وعلى رءوسهنّ ، تقوم الحضارة ، كما يقوم المثلث على أضلعه الثلاثة ، تلتقى الأضلاع عند الرءوس ، لكنّ واحدًا منها لا يُلغى واحدًا » .

« مع الشعراء .. ١٩٦ - ١٩٧ »

أهم المصادر والمراجع

١ – زكى نجيب محمود : حصاد السنين ١٩٩٢م

٢ – زكى نجيب محمود : تجديد الفكر العربى ١٩٧٦م

٣ – زكى نجيب محمود : قصة عقل ١٩٦٥م

٤ – زكى نجيب محمود : قشور ولباب ١٩٨٠م

٥ – زكى نجيب محمود : مع الشعراء ١٩٨٨م

٦ – زكى نجيب محمود : نافذة على فلسفة العصر ١٩٩٠م

٧ – زكى نجيب محمود :برتراند راسل ١٩٦٠م

٨ – عباس محمود العقاد : مطالعات ١٩٤٠م

٩ – عباس محمود العقاد : مراجعات ١٩٤٥م

١٠ – عباس محمود العقاد : اللغة الشاعرة ١٩٤٠م

١١ – د . مصطفى عبد الغنى – زكى نجيب محمود « من سلسلة نقاد الأدب » ١٩٩٢م الهيئة العامة للكتاب .